الزهد في شعر أبي العتاهية

م . م لمى سعدون جاسم

كلية الآداب - الجامعة الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين محمد وآله وصحبه ومن دعا بدعواهم إلى يوم الدين.

وبعد:

يقف الشاعر أبو العتاهية على مساحة واسعة وكبيرة من المنزلة الرفيعة التي يحتلها في العصر العباسي بخاصة وفي الشعر العربي بكافة عصوره على نحو عام.

حاولنا في هذه المرحلة القصيرة جداً من البحث اخذ زهد ابي العتاهية بالدراسة والتحليل لبيان ما عند هذا الرجل من كنز شعري كبير في غرض الزهد للإشارة إليه ليكون ميدانا لبحوث أكثر رصانة واشد عمقاً.

وقد قسمنا هذه الدراسة على مقدمة تناولنا فيها أسباب اختيار البحث وتقسيماته والمشاكل التي عانينا منها أثناء البحث، وأربعة مباحث، تناولنا في الأول منها: مفهوم الزهد في المعجمات العربية ومفهومه في الاصطلاح ثم تناولنا شيئاً من تاريخ، ظهوره وما حدّهُ وتعريفه، كي نتعرف عن ماذا نبحث في هذه الدراسة قبل الدخول فيها. ثم عرّفنا بالشاعر ابي العتاهية لكونه موضوع البحث ومن الضروري التعريف به.

أما المبحث الثاني فقد خصصناه للدوافع التي جعلت ابا العتاهية ينحو هذا المنحى، وانتهينا فيها إلى رأينا المرجح في الأمر، بينما المبحث الثالث كان في تجليات الزهد في عناوين قصائد الشاعر.

وخصصنا المبحث الرابع لدراسة مضامين زهده في شعره ودراسة العناصر المهيمنة أكثر من غيرها في شعره الزهدي.

وقد واجهت البحث مجموعة من المشكلات، منها، ضيق الوقت المخصص لبحث كبير بهذا الحجم وهذا العنوان الضخم، بسبب سعة الموضوع، لذلك فهذا البحث لا يعدو كونه إشارات بسيطة وخطوط عريضة لما يتضمنه هذا العنوان.

ومن المشكلات كذلك قلة المصادر التي تناولت الموضوع بالدراسة، ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطأنا.

الباحث

المبحث الأول
مفهوم الزهد في اللغة والاصطلاح والتعريف بالشاعر

الزهد في اللغة مأخوذ من الفعل زهد (كمنع، وسمع، وزهدا وزهادة: ضد رغب)[1] و(الزهد في الدين خاصة والزهادة في الأشياء كلها)[2]، ويلفظ بالحالتين (زهد) بكسر الهاء وبفتحها[3]، ويأتي الفعل زهد في الأمر وزهد عنه أيضا بمعنى تركه وأعرض عنه[4].

إما الزهد في المفهوم الإسلامي فهو (الانصراف عن الدنيا ومفاتنها والتمسك بالتقوى والعمل الصالح مع الكسب والعمل... وقد ترك الوعاظ في العصور المختلفة مادة غزيرة لمعاصريهم من الشعراء فصاغوا قصائد في الوعظ دفعت الناس إلى نبذ الحياة والعيش للآخرة)[5].

ولا يعد الزهد من مبتكرات العصر الإسلامي أو الدين الإسلامي، بل كان له وجود من قبل ذلك بكثير في الديانات الهندية القديمة، وكان منتشرا بين اليهود والمسيحيين[6]، ولكن عدم انتسابه إلى دين معين لا يدل على انه غير مرتبط بدين معين (لان كلمة زهد مأخوذة أصلاً عن كلمة يونانية بمعنى الرياضة)[7].

ولما كانت الرياضة والمقصود منها الروحية هنا والبدنية كذلك كانت من صفات بعض النفوس التي تميل إلى ممارسة هذا النوع من الرياضة، لذا كان الزهد غير مرتبط بدين معين.

أن القول بابتعاد الزهد عن الدين كليا يحتاج إلى تسليط الضوء على شيئين: أولهما: أن هناك تعاليم في الدين يفهم منها أن المقصود هو الابتعاد عن الملذات قدر الإمكان، وبهذا يتوفر الوازع الديني، مثل وجود آيات قرآنية تحض على الابتعاد عن الملذات كقوله تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[8]. ثانيهما: فهو وجود العوامل الدنيوية الدافعة إلى الزهد والابتعاد عن ملذات الدنيا، هذا فضلاً عن أن الزهد استعداد نفسي لدى الشخص، وبهذا يكون العاملان السابقان أساسيين في التشجيع على المشي في طريق الزهد.

ولا يبتعد الأمر كثيرا بين الزهد والتصوف عند المسلمين، وقد نجد تمازجا بين الاثنين من حيث ما يؤدي إليه كلاهما على الأقل من رقي في الأخلاق وسعادة روحية.

ويمكننا القول إن التصوف الإسلامي نشأ من مرحلة الزهد التي شاعت في القرنين الأول والثاني للهجرة[9] والتي تجلت في مأكل المسلمين ومشربهم ولكن يجب القول أنها عند بعضهم وليست عند الجميع.

أما ما قصدناه بشعر أبي العتاهية في عنوان البحث فليس المراد منه ما كتبه من شعر في المصادر العربية التراثية التي جمعها المحققون وهم كثر ولكننا اخترنا شعره المجموع في ديوانه الذي حققه الدكتور عمر فاروق الطباع لأنه في رأينا أفضل جمع لديوان الشاعر.

أما أبو العتاهية فهو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، وكنيته ابو اسحاق، ولقبه أبو العتاهية، ولد بالكوفة سنة 130 للهجرة النبوية المشرفة ونشأ بها وكانت باديته[10] أما عائلته فقد (كانت له ابنتان يقال لأحدهما: لله، وللأخرى: بالله.. وله ابن شاعر ناسك)[11].

وقد اختلف الباحثون في سبب تسميته أو تلقيبه بأبي العتاهية، كل يرى رأياً في ذلك، فمنهم من يرى انه كني بذلك لأنه (روي ان المهدي قال يوما: أنت إنسان متحذلق معته، فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته وقيل: كني بأبي العتاهية لأنه كان يحب الشهرة (والمجون التعتة)[12].

واختلف الناس في مكان ولادته، فالمؤرخون يجمعون على أن ولادته بـ(عين التمر) وتلك منطقة معروفة في العراق[13] في المنطقة الواقعة على جهة كربلاء والرمادي والصحراء وهي معروفة عند أهل العراق اليوم وقسم منهم يسميها (شثاثه)، لكن بعض الباحثين– وهذا ما نعنيه باختلافهم– يرى أنها **قرية بالحجاز**[14].

واختلفت أراء المؤرخين في أصله أيضاً، فقد قال قسم منهم انه من موالي عنزة وانه نبطي، وقال قسم آخر انه عربي، ولكن البحث في هذا الموضوع يخرجنا من موضوع دراستنا لذلك اكتفينا بالإشارة إليه[15].

ويلاحظ أيضاً اختلاف المؤرخين في صفاته الخلقية، فقد ذكر بعضهم انه كان جميلا حسن المنظر ومنهم من رأى انه قبيح الوجه مليح الحركات[16]، وقد كانت وفاته 211 للهجرة[17].

المبحث الثاني
دوافع الزهد عند أبي العتاهية

مر بنا أن للزهد دوافع تدفع بهذا أو ذاك نحو هذا الطريق الصعب الركوب ونعني به الزهد، لذلك رأينا أن نغور في أعماق شاعرنا لنرى دوافعه الشخصية لذلك، والعوامل المحيطية، أي: الاستعداد الذاتي والمؤثر الخارجي.

وإذا كنا قد رأينا أن للزهد عوامل دينية وعوامل دنيوية، فحري بنا أن نتناول بالبحث دين ابي العتاهية وتمسكه به، لكي نعرف هل كان يصدر عن عامل ديني ثم نتناول العوامل الدنيوية المحيطة به ونرى هل دفعت به إلى الزهد؟

أ. العامل الديني:

لعل الأمر ليس صعبا ولا جديداً اذا قلنا إن أبا العتاهية كان مطعونا في دينه أصلاً قبل أن نناقش تمسكه الديني، ومطعونا في أخلاقه وتصرفاته، فلقد وجهت تهمة الزندقة الى الشاعر كثر من مرة[18]، وربما نستطيع الوصول إلى ذلك ببساطة عند تقليب صفحات الكتب التي تناولته بالبحث فنجد عنوانات لها تسمى بـ(اتهامه بالزندقة)، وينقلون روايات زندقته (حتى قالوا انه لا يؤمن بالبعث وانه زنديق)[19]، وربما كانت تهمة الزندقة متأتية من عدة مواضع:

1. أن تهمة الزندقة كانت شائعة جدا في العصر العباسي وأخبارها مبثوثة في الكتب لا تحتاج إلى دليل، والرجل من ابناء هذا العصر، لذلك ليست القضية مستوردة من بعيد فهي موجودة في عصر هو فيه.
2. أن هناك ابياتا في شعره تخرج للمبالغة في الشيء، توحي بأنه يريد منها الاشراك وبخاصة أذا تناول الشعر من لا دراية له به من أرباب الفتاوى، الذين يرون أن الانسان ربما خرج من الدين بمبالغة في شيء ما، وهؤلاء كانوا يترصدون للشعراء وخاصة لشاعر مثل ابي العتاهية، كان موهوباً، والموهوب محسود كما يقولون، لذلك فهو عرضة قبل غيره لهذا النوع من الاتهام، وقد رأى هؤلاء ابياتاً عنده اوحت اليهم إنها اشرك وانه مشرك، منها قوله:

إن المليك راك احسن خلقه وراى جمالك
فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

فقالوا: كيف يصور الله الحور على مثال امرأة آدمية، والله اعلم لا يحتاج الى مثال[20]. ولا تحتاج هذه الابيات الى تعليق، لأن كل من عرف أساليب الشعراء في خروج شعرهم في بعض معانيه الى المبالغة والاستحالة أحيانا عرف أن ذلك نوع منه، وقد تكون مبالغات ابي العتاهية من النوع المستهجن لا المستحسن ولكنها مبالغة على اية حال لا تصل إلى الكفر والزندقة.

وربما كان ابو العتاهية أول من رد على هذه التهمة بما يروى من أن الرشيد قال له: (الناس يزعمون انك زنديق. قال: يا سيدي كيف أكون زنديقاً وانا القائل:

فيا عجبا كيف يعصى الاله ... ام كيف يجحده جاحد ؟
ولله في كل تحريكة ... علينا وتسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على انه واحد[21]

ولم تكن المبالغة الشعرية في الآبيات المارة السبب الوحيد في اتهامه بالزندقة، فقد بحثوا له عن شيء آخر وهو المذهب الفلسفي الذي قالوا انه يؤمن به وهو الذي يعنون بأنه ينكر الحساب والبعث والنشور، وبتهمة ثالثة هي أن (الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء، ثم بنى العالم هذه البنية منهما)[22].

ورأينا انه كان مترددا متحيرا سوداويا ضعيف الأيمان في شبابه خاصة لا يأخذ شيئاً الا بقناعته هو وتفكره وإعادة نظر منه ولكنه لم يكن فيلسوفا لتنطبق عليه آراء الفلاسفة في تلك الأمور.

3. سلوكه المشين أيام شبابه دفع الى اتهامه بالزندقة ايضا (فقد كان نهما في العقود الأولى من حياته بضروب من الخلاعة)[23] فقد عكف على الخمر واللهو:

لْهفي على الزَّمَنِ القصير ... بينَ الخَورْنق والسدير
اذ نحنُ في غُرفِ الجِنا ... ن نعُومُ في بحْرِ السّرورِ
في فِتْيةٍ ملكوا عنا ... ن الدَّهْر أمثالِ الصُّقُورِ
ما مِنْهمُ الا الجَسُو ... رُ على الهوى غَيْرُ الحَصورِ
يتعاورون مُداماةً ... صَهْباء من حَلَبِ العَصيرِ
عَذْراء ربَّاها شُعا ... عُ الشَّمْسِ في حَرِّ الهجيرِ
لم تُدْنَ مِنْ نار ولمْ ... يَعْلُقْ بها وضر القُدورِ

* * * * *

ومُخصّـــــــــراتٍ زُرْنـــــــــا بَعْـــد الهُـــدُو مـــنَ الخُـــدورِ
ريـــــا روادفهـــــن يلـــــ بســـن الخـــواتم فـــي الخصـــورِ
غـــــر الوجـــــوه محجبـــــا تٍ قاصـــرات الطـــرف حـــور
مُتنعمـــــات فـــــي النعيـــــ م مضـــــــمّخاتٍ بـــــالعَبير
يـــــرفلن فـــــي حلـــــل المحـــــا ســـن والمجاســـد والحريـــر[24]

ولم يكتف بهذا القول بل راح يذهب مذاهب شتى في زيه واختلاطه بـالجواري و(ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن أياس ووالبة)[25].

4. كثر بكائه ورثائه لعلي بن ثابت صديقه وكان قد قُتل على زندقته، دفعت الى اتهامـه بالزندقة، إذ ظل يبكيه ويندبه طويلاً في لوعة وحرقة وأسى عميق[26].

أن القارئ لديوان الشاعر المتفحص لآرائه لا يستطيع أن يقول انه كان زنـديقاً، ذلك لان ديوانه مملوء بشعره الإيماني التوحيدي الخالص، وإن تهمة الزندقة مبالغ فيهـا كثيرا، ولكن يمكن القول انه يتذبذب في آرائه احيانا ويتشاءم ولكنه لا يخرج عن الأيمان بحيث نستطيع أن نقول انه زنديق لانه في رأينا ليس زنديقا، وذلك رأي كوّناه من قرائتنا المستفيضة لديوانه.

ب. اما العوامل الدنيوية:

التي ترجح أن أبا العتاهية ذهب مذهب الزهد بسببها فكثيرة منها:

1. الكآبة والعزلة التي عانى منها الشاعر[27] وبخاصة بسبب الصدمات التي وقعت لـه من جراء فشله في تجارب الحب الذي بدأ فيه بسعدى المرأة النائحة من أهل الحيرة، التـي ضربه بسببها عبد الله بن معن بن زائدة لأجل أن يتخلى له عنها[28]، ومـا أن خرج من هذه الصدمة حتى وقع في حب عتبة جارية المهـدي التـي احبهـا بكـل جوارحه ولكنه لم يظفر بها، لان (الخيزران أم الرشيد كانت متسـلطة فـي دولـة المهدي تأمر وتنهي، وانها اوعزت إلى يحيى بن خالد وزير ابنها الذي كان يصـدر عن رأيها، فأيّد رغبة عتبة التي كانت تؤثر نمط حياتها في البلاط). ولم يقـف ابـو العتاهية عند هذا الحد بل راح يلح للظفر بها حتى قيل انه ضرب مئة سوط ونفي إلى الكوفة[29].

2. أما السبب الآخر الذي ربما يكون قد دفعه إلى الزهد فهو ما عاناه من كونه ابنا لاسرة فقيرة مغمورة[30]، وذلك ما جعله زاهدا في متع الحياة التي لا ينالها اصلا، وهذا ما يسميه المختصون بعلم النفس بالبحث عن تبرير لسلوك الذات، وللعرب في ذلك شعر كثير.
3. وربما كان اغرب سبب لزهده هو كون هذا الزهد (اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مع زبيدة من جهة أخرى لابعاد الرشيد عن مجالس الانس والطرب والجواري منافسات زبيدة)[31].
4. سبب آخر الاستعداد النفسي لدى أبي العتاهية، فقد كان يتجنب الأذى، ويسميل إلى الرفق واللين في طلب حاجته، ولا يواجه الشر بالشر، فعندما سجن طلب برفق ولين من الخليفة هارون الرشيد أن يرفق بحاله[32]، فهو قانع بسيط، سهل مقنع في أسلوبه الشعري.

إن هذه العوامل جميعا هي التي خلقت روح الزهد عند ابي العتاهية، كل هذه العوامل من مؤثرات دينية ومؤثرات الحياة مثل الاخفاق في الحب والفقر وقد يكون لزبيدة دور في ذلك، والظاهر ان زهده ربما بدا مصطنعا ولكنه انتهى عالياً صادقاً وبخاصة في اخريات عمره.

وقد كان زهده موضع شك عند الكثيرين من الذين يرون انه لم يكن زاهداً، لصدور أقوال تنافي الزهد في حياة الزاهدين، منها تشجيعه ولده على ترك التصوف والذهاب إلى دكانه وكان بزازا[33]، وأقوال أخرى لشعراء آخرين فيه، فقد روي أن الجماز ابن اخت سلم الخاسر الشاعر وقيل هي لسلم الخاسر نفسه قال[34]:

ما أقبحَ التزهيد من واعظ ... يُزهِّدُ الناسَ ولا يزهدُ!
لو كانَ في تزهيده صادقاً ... أضحى وأمسى بيتهُ المسجدُ
يخافُ أن تنفد أرزاقهُ ... والرزقُ عند الله لا ينفدُ

وسبب كل تلك الهجمة عليه هو حبه للمال، فقد كان يخاف الفقر خوفا كبيرا ويجمع المال ولا يصرفه بل يذهب للحصول على غيره وهذا ما تعارض مع سيرة الزهاد، لأنه لا يملك حسن الظن بالله الرزاق، وهذا ما يشير إليه خصومه به.

المبحث الثالث
تجليات الزهد في عناوين شعر أبي العتاهية

يمكننا أن نجد تجليات زهد ابي العتاهية من خلال النظرة الأولى قبل النظرة البحثية الفاحصة، فديوانه مليء بالإشارات التي تدل على هيمنة الزهد على عناوين قصائده على غيرها من العنوانات الأخرى وإذا أردنا استلال عناوين زهدياته من قصائده الأخرى والنظر إليها على كونها عاملا طاغيا، نجد أن هناك إشارات كثيرة تحض وتشجع على الزهد والابتعاد عن ملذات الدنيا.

وربما ترددت الدنيا كثيرا في العناوين وقد يرد لفظ بمعناها أو قريباً منها، وترد غالبا مصحوبة بأفعال يراد منها ترك الدنيا أو جمل اسمية تحمل المضمون نفسه، منها (ما الدنيا بدار بقاء) و(للزمان اشتداد) و(حياتك أنفاس) و(ليس لها منتهى) و(خرجنا من الدنيا) و(إنما الدنيا بلاء) و(نغتر بالدنيا) و(تقلبني الأيام) و (هي الدنيا) و(لمن تجمع الدنيا) و(ركنا إلى الدنيا) و(دنياك يوم واحد) و(مالت بك الدنيا) و(رماه الزمن) و(ستنقله الأيام) و(دبّر الدنيا حكيم) و(إنما الدنيا غرور) و(ليس فيها قرار) و(لا تامن الدهر) و(يابائي الدنيا) و(يا دار الأذى) و(خذ الدنيا بأيسره) و(يا طالب الدنيا) (تصرف حال الدنيا) و(للدنيا ودائع) و(علل الزمان كثيرة) و(يا لليالي وللأيام) و(نعمر الدنيا) و(كم تغر الدنيا)[35].

أن كثرة هذه العناوين تشير إلى أن زوال الدنيا عنصر مهيمن على قصائده لان نسبتها كبيرة بالقياس إلى العناوين الأخرى.

وإذا ما اردنا اكتشاف مدى تطابق تلك العناوين بالقصيدة نفسها، او عدم تدخله واستقلال العناوين عن القصائد، لمعرفة ذلك يجب أن نقوم بدراسة أمثلة منتقاة بطريقة عشوائية من زهدياته التي عنوانها يرتبط بمفهوم الدنيا لمعرفة تلك العلاقة، فعلى سبيل المثال قصيدته (انما الدنيا بلاء)[36] التي يقول فيها:

طالما احلولى معاشي وطابا ... طالما سحبت خلفي الثيابا
طالما طاوعت جهلي ولهوي ... طالما نازعت صحبي الشرابا
طالما كنت احب التصابي ... فرماني سهمه واصابا
ايها البائي قصورا طوالا ... اين تبغي، هل تريد السحابا

انما انت بوادي المنايا ... ان رماك الموت فيه اصابا
ايها الباني لهدم الليالي ... ابن ما شئت ستلقى خرابا
أأمنت الموت، والموت يأبى ... بك والايام الا انقلابا
هل ترى الدنيا بعيني بصير ... انما الدنيا تحاكي السرابا
انما الدنيا كفيء تولى ... أو كما عاينت فيه الضبابا
نار هذا الموت في الناس طرا ... كل يوم قد تزيد التهابا
انما الدنيا بلاء وكد ... واكتئاب قد يسوق اكتئابا
ما استطاب العيش فيها حليم ... لا ولا دام له ما استطابا
ايها المرء الذي قد ابى ان ... يهجر اللهو بها والشبابا
وبنى فيها قصورا ودورا ... وبنى بعد القباب القبابا
وراى كل قبيح جميلا ... وابى للغي الا ارتكابا
انت في دار ترى الموت فيها ... مستشيطا قد اذل الرقابا
ابت الدنيا على كل حي ... أخر الايام الا ذهابا
انما تنفي الحياة المنايا ... مثلما ينفي المشيب الشبابا
ما ارى الدنيا على كل حي ... نالها، الا اذى وعذابا
بينما الانسان حي قوي ... اذ دعاه يومه فاجابا
غير ان الموت شيء جليل ... يترك الدور يبابا خرابا
أي عيش دام فيها لحي ... أي حي مات فيها فابا
أي ملك كان فيها لقوم ... قبلنا، لم يسلبوه الا استلابا
انما داعي المنايا ينادي ... احملوا الزاد وشدوا الركابا
جعل الرحمن بين المنايا ... انفس الخلق جميعا نهابا
ليت شعري عن لساني أيقوى ... يوم عرضي أن يرد الجوابا
ليت شعري بيميني اعطى ... ام شمالي عند ذاك الكتابا
سامح الناس فاني اراهم ... اصبحوا الا قليلا ذئابا
افش معروفك فيهم واكثر ... ثم لا تبغ عليه ثوابا
وسل الله إذا خفت فقرا ... فهو يعطيك العطايا الرغابا

أن قراءة هذه القصيدة توحي إن عنوانها مستمد منها ومن داخلها، بل انه مذكور فيها وذو صلة بكل معانيها، والقصيدة تبدأ بالتذكر لزمن مضى وانقضى وهو الشباب أو لنقل وقت اللهو، وهذا ما يفيده تكرار (طالما) خمس مرات في ثلاثة أبيات هي مطلع هذه القصيدة.

وقد تكررت طالما ضمن قالب ثابت، إذ تأتي ويأتي بعدها الفعل كل مرة وصيغته الزمنية (الماضي) ويأتي بعده المفعول به في مواضع ويكون المفعول به مضافا إلى ياء المتكلم وهكذا تبدو: طالما + فعل ماض + مفعول به.

وهذه مقدمة تدل على ندم على أفعال ماضية طالما فعلها شاعرنا، وهو في هذه الأبيات يتكلم بصيغة المتكلم عن نفسه، ثم ينتقل إلى الخطاب، أي مخاطبة الأخر، وذلك في البيت الرابع وهو (الباني) فيستنكر عليه أعماله من خلال اداتي الاستفهام: أين وهل

اين تبغي؟

هل تريد السحابا؟

وفي البيت الخامس يستخدم أداة القصر (إنما) للدلالة أن الفعل المتقدم لا محالة منتهٍ وغير مستمر، وان البناء سيبقى لأنك ميت لأنك مقيم بوادي المنايا وهي الدنيا التي استخدمها عنوانا لقصيدته.

والشاعر بهذه الأبيات يكون قد استخدم الأزمنة الثلاث: الماضي في الأبيات الثلاثة الأولى والمضارع في البيت الرابع والمستقبل في مضمون البيت الخامس وفي السادس بشكل صريح من خلال (سوف) + الفعل المضارع.

ثم يأخذ في رسم عدة صور للدنيا لتحقيرها في الأذهان ولترغيب الناس في الاخرة وترهيبهم من الاقبال على الدنيا، الدنيا عنده:

إنما الدنيا تحاكي السَّرابا.

انما الدنيا كفيء تولى.

ويلاحظ استخدام (انما) لقصر مفهوم الدنيا على كونها سرابا او ظلا يذهب بسرعة وهو وهم لا يدوم كالسراب.

ثم يأخذ بسرد الأبيات التي تصف عظم هول المنية التي لم تبق احدا من الملوك ولا الناس البسطاء إلا اختطفته بانيابها التي لا ترحم ولا تفرق، وذلك ما يريد الشاعر أن

يصبغ به قصيدته للدلالة على أن الدنيا بلاء من خلال نهايتها المأساوية التي لم يفلت منها احد وهي الحقيقة التي لابد منها وهي الموت.

وبهذا يكون عنوان القصيدة مستمدا أصلاً من موضوعها وناتجاً عنه، ولم يأت اعتباطا، بل له صلة وثيقة بالقصيدة وموضوعها الذي لخصه العنوان، فالقصيدة هي أدلة وبراهين على صحة الفرضية التي قدمها ابو العتاهية، وكأنه قدم فرضية واثبتها من خلال القصيدة.

وفي مقطوعة أخرى لم يذكر اسم الدنيا في عنوانها صراحة ولكنه وصفها وناداها عندما أطلق عليها (يادار الاذى) يقول[37]:

اصبحت يا دار الاذى وصفاك ممتلئ قذى
أين الذين عهدتهم قطعوا الحياة تلذذا
درجوا غداة رماهم ريب الزمان فانفذا
سنصير ايضا مثلهم عما قليل هكذا
يا هؤلاء تفكروا للموت يغذو من غذا

ويلاحظ على معانيه أنها تقوم على المقارنة بين زمنين: زمن مضى: الذين قطعوا الحياة تلذذا، درجوا غداة رماهم ريب الزمان فانفذا، ثم ينتقل للعبرة من هذا الزمن الماضي وذلك بتخطي الحاضر فهو زمنه المراد تطويعه، لذلك يختم بقوله:

يا هؤلاء تفكروا للموت يغذو من غذا

فهو بيت القصيد المطلوب توصيل معناه، وبهذا نستطيع القول: أن عنوانه مرتبط بموضوعه، لأنه انتهى بالموت.

والملاحظ أن ابا العتاهية يكثر من التذكير بالموت في قصائده التي تذم الدنيا وطالبيها وتذم الاقبال عليها، وهذا ما يكرره، لانه فقدان للنفس والمال، فالميت يخرج صفر اليدين من كل شيء إلا من عمله وهذا ما يريد الشاعر التذكير به في قصائد كثيرة منها قصيدته (دنياك يوم واحد) [38] يقول:

ما رايت العيش يصفو لاحد دون كد وعناء ونكد
كن لما قدمته مغتنما لا تؤخر عمل اليوم لغد
ان للموت لسهما قاتلا ليس يفدي أحداً منه احد

قد ارى ان لست في الدنيا ولو ... بقيت لي دائما طول الأبد
انني منها غدا مرتحل ... او اراني راحلا من بعد غد
اجمع المال لغيري دائبا ... واقاسي العيش منه في كبد
لمن المال الذي اجمعه؟ ... ألنفسي ام لاهلي والولد؟
ما يبالي ولدي بعدي اذا ... غيبوا والدهم تحت اللبد
واصابوا ماله من بعده ... الغي قد مضى ام لرشد
انما دنياك يوم واحد ... فاذا يومك ولى لم يعد
يفعل الله الهي ما يشا ... ما لأمر الله فينا من مرد
يرزق الاحمق رزقا واسعا ... وترى ذا اللب محروماً نكد

أن عنوان القصيدة يوحي أنها تدل على اختصار الزمن وهو المقصود من (دنياك) باضافة كاف الخطاب (ك) لان دنيا كل واحد هو عمره وليس كل الدنيا من خلقها الى نهايتها، فاذا كان العمر يوما واحدا فلماذا الحرص عليه والمعصية فيه والكدر والتعب وطلب المعايش؟ هل هي للورثة كما يقول ابو العتاهية، ويلاحظ أن عنوان القصيدة هو منها، في قوله:

إنما دنياك يوم واحد ... فإذا يومك ولى لم يعد

ويلاحظ كذلك انه يستمد معانيه من مصادر إسلامية قرآنية وبخاصة في قضية الموت والرزق.

ومما تقدم نخلص إلى أن العنصر المهيمن في عناوين قصائد ابي العتاهية هو عنصر الزهد الذي يعالجه من خلال موضوع الدنيا التي أورد لفظها أو ما يقابله في عناوين قصائده مرات كثيرة حتى تكاد تكون نسبة مهيمنة بصورة كبيرة على ديوانه بالكامل وهذا يدل على أننا نستطيع القول أن ابا العتاهية شاعر زاهد وان وجدت فنون وأغراض شعرية أخرى مثل الغزل وغيره إلا أن المساحة الكبرى في ديوانه تبقى للزهد وعناوين قصائده تشير إلى ذلك من النظرة الأولى.

المبحث الرابع
مضامين الزهد في شعر أبي العتاهية

أن المضامين التي تناولها أبو العتاهية كثيرة ولكنها لا تخرج عن مضامين غيره من شعراء الزهد، ولكن الفرق يكون في التركيز على مضمون دون أخر، ولعل أكثر مضمون ركز عليه شاعرنا هو الموت، الذي جعله غاية كل شيء وهدف كل ولادة، وهذا بطبيعة الحال يخالف حتى مضمون القرآن الذي قصر خلق الناس والجن لأجل العبادة لا لأجل الموت، ولكن الشاعر يريد تعميق معناه والحث على ترك الدنيا الخداعة، ويذهب في قوله مذهبا بعيدا، فيقول[39]:

الا كل مولود فللموت يولد ... ولست ارى حيا لشيء يخلد
تجرد من الدنيا فانك انما ... سقطت الى الدنيا وانت مجرد
وافضل شيء نلت منها فانه ... متاع قليل يضمحل وينفد
وكم من عزيز اذهب الدهر عزه ... فاصبح محروما وقد كان يحسد
فلا تحمد الدنيا ولكن ذمها ... وما بال شيء ذمه الله يحمد

والحق أن النهاية وان كانت الموت إلا أن على الإنسان رسالة يجب أن يؤديها على أتم صورة وهي خلافة الله في الأرض، وعمار الدنيا بالخير والعلم، لا الجلوس بانتظار الموت.

ولكن ابا العتاهية يجعل الموت غاية حتى للولادات المتكررة يوميا في العالم، ونراه يركز على هذا المضمون أي الموت تركيزا كبيرا في شعره، يقول[40]:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بان المرء غير مخلد
او ما ترى ان المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصد
من، لم يصب ممن ترى بمصيبة؟ ... هذا سبيل لست فيه بمفرد

وكذلك يقول:

الموت لا والدا يبقي ولا ولدا ... ولا صغيرا ولا شيخا ولا احدا
للموت فينا سهام غير مخطئة ... من فاته اليوم سهم لم يفته غدا
ماضر من عرف الدنيا وغرتها ... الا ينافس فيها اهلها ابدا

ولكون الموت عنصرا مهيمنا في شعر ابي العتاهية ولصعوبة الاحاطة بكل تجليات الموت في ديوانه الكبير، فضلنا أن نأخذ قصيدة من شعره لدراستها بشيء من التفصيل وهي بعنوان (تجوس كل البلاد) [41]، والملاحظ على تلك القصيدة انها تبدأ بالتذكير بالمنايا التي تجوس البلاد وتبيد العباد:

المنايا تجوس كل البلاد والمنايا تبيد كل العباد

ثم يذكر الأقوام الذين أفنتهم جميعا من عاد وثمود ونزار وأياد وهؤلاء أقوام وقبائل وكذلك بني الأصفر وبني ساسان من الحكام وكذلك داود وسليمان ونمرود وقارون وهامان:

لتنالن من قرون أراها مثل ما نلن من ثمود وعاد
هن افنين من مضى من نزار هن افنين من مضى من إياد
هل تذكرت من خلا من بني الاصـ ـفر أهل القباب والاطواد
هل تذكرت من خلا من بني سا سان أرباب فارس والسواد
أين داود أين أين سليما ن المنيع الأعراض والأجناد
راكب الريح قاهر الجن والانـ س بسلطانه مذل الأعادي
أين نمرود وابنه أين قارو ن وهامان ذو الأوتاد

وهؤلاء أنبياء وأغنياء وجبابرة لو كانت الدنيا تدوم لدامت لهم، وهذا أسلوب سرد للمقارنة بينهم وهم في عظمتهم وسلطانهم وملكهم وعزهم وبين عدم وجودهم اليوم بعد ان جالت عليهم المنايا وقطعت أرواحهم فصاروا حكايات وعبر، فالشاعر يريد من خلال سرده هذا ان يعطي عبرة ومثلا من خلال اسئلته:

هل تذكرت من خلا من بني الأصـ ـفر اهل القباب والاطواد
هل تذكرت من خلا من بني سا سان أرباب فارس والسواد

ومن خلال تكرار أداة الاستفهام أين:

أين – نمرود وهامان ونمرود وسليمان، بتكرار أين مع الجميع.

وكل هذا الذكر للاعتبار بالموت والمنايا التي تجوس البلاد

ان في ذكرهم لنا لاعتبارا ودليلا على سبيل الرشاد
وردوا كلهم حياض المنايا ثم لم يصدروا عن الايراد

ايهـا المزمـع الرحيـل عـن الـدنيا تـزود لـذاك مـن خيـر زاد
لتنالنـك الليـالي وشـيكا بالمنايـا فكـن علـى اسـتعداد

ثم يعود إلى أسلوب التكرار:

أتناسـيت ام نسـيت المنايـا أنسـيت الفـراق لـلأولاد
أنسـيت القبـور اذ أنـت فيهـا بـين ذل ووحشـة وانفـراد
أي يـوم يـوم السـباق واذ انـ ـت تنـادى فمـا تجيـب المنـادي
أي يـوم يـوم الفـراق واذ نفـ سـك ترقـى عـن الحشـا والفـؤاد
أي يـوم يـوم الفـراق واذ انـ ـت مـن النـزع فـي اشـد الجهـاد
أي يـوم يـوم الصـراخ واذ يلـ طمـن حـر الوجـوه والاسـاد

وذلك كله تذكار للعبرة من الماضي والاعتبار من زمن فات، وكـان الشـاعر يقول: كل هؤلاء العظماء (سلبا وايجابا) قد أتت عليهم المنايا، فكيف الحـال بنـا ونحـن ضعفاء، لذلك فالمنية اتية إلينا بلا ريب، والملاحظ انه يريد تعميق معنى المـوت وهـو الغرض الرئيس من القصيدة، ثم يذكر بيتين يصوران حال الميت عند موته وما يحصـل حوله:

باكيـات عليـك ينـدبن شـجوا خافقـات القلـوب والاكبـاد
يتجـاوبن بـالرنين ويذرفـ ـن دموعـا تفـيض فـيض المـزاد

ثم يعود إلى أسلوبه الطاغي على قصيدته وهو الاسـتفهام وبالصـيغة السـابقة نفسها:

أي يـوم نسـيت يـوم التلاقـي أي يـوم نسـيت يـوم المعـاد
أي يـوم يـوم الوقـوف الـى اللـ ـه ويـوم الحسـاب والاشـهاد
أي يـوم يـوم الممـر علـى النـا ر واهوالهـا العظـام الشـداد
أي يـوم يـوم الخـلاص مـن النـا ر وهـول العـذاب والاصـفاد

ثم يستخدم اداة الاستفهام (كم) للمبالغة في تكثير المعدود بعدها:

كم وكم في القبـور مـن اهـل ملـك كـم وكـم فـي القبـور مـن قـواد
كم وكم في القبـور مـن اهـل دنيـا كـم وكـم فـي القبـور مـن زهـاد

والملاحظ ان هذه القصيدة اتخذت طابع التذكير أولاً بالقرون الأولى لغرض اخذ العظة منهم ومن ديارهم الخالية وممالكهم البالية، ثم انتقلت إلى تهويل يوم الموت وهو العماد الذي قامت عليه القصيدة وأخذت تصف صورا متعددة لذلك اليوم أو انتهت إلى ضرورة اخذ الدرس من الآخرين وترك اللهو:

كيف الهو وكيف اسلو وانسى الـ موت والموت رائح ثم غاد

ونستطيع القول أن القصيدة وظفت أسلوب التكرار النابع من حاجة داخلية في نفس الشاعر ومن موضوع القصيدة وهو الموت والتكرار (يأتي في الكلام توكيدا له وتسديدا من أمره واشعارا بعظم شأنه) [42] وهذا ما أراده الشاعر وما نبع منه تكراره.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المشوقة مع ابي العتاهية وشعره الزهدي نستطيع القول أن الزهد رياضة روحية لا ترتبط بدين ولكن الأديان توقدها في النفوس من خلال ما تدعو إليه من الابتعاد عن الملذات والترغيب في الاخره، أما أبو العتاهية فنستطيع القول إلى انه ذهب مذهبه الزهدي بفعل عوامل عديدة مجتمعة أدت به إلى سلوك هذا النوع من العيش والشعر الذي نتج عنه، كما نستطيع الادعاء انه بدأ بزهد بسيط وربما مصطنع ولكنه انتهى إلى الزهد الحقيقي في أخريات أيامه بخاصة، ولكنه بقي موضع خلاف في كل شيء في دينه وفي نسبه وفي حقيقة زهده وفي صفاته وفي مكان ولادته، لذلك فزهده أكثر عرضة للنقد، ومرد هذا النقد متأت من كونه ليس على ثقة بموضوع الرزق لأنه كان يخاف الفقر جدا ونرجح أن يكون ذلك ليس لسوء الثقة بالله الرزاق ولكن تولدت عنده حالة نفسية نتيجة الفقر الذي عاناه أيام صباه خصوصا، مما حدا به أن يكون بخيلا لهذا الحد.

أما اتهامه بالزندقة فمرده إلى ما بدا منه من مخالطاته للمجان ومما كان في شعره من مبالغات لا تخرج للكفر ولكن توفر لمتصيدي الكفر ممن يبحثون له أو لغيره عن زلة هنا وهناك حدا به أن يصل إلى حد الاتهام بالزندقة وهي من اشد التهم التي من الممكن أن يلاقيها إنسان في مجتمع متدين أو يراد له أن يكون كذلك، كما أن ابا العتاهية ليس فيلسوفا كما رموه بهذا المذهب الذي يريدون منه تكفيره بل كان من ابسط أصحاب الأفكار وشعره دليل على ذلك، ولكن قد تجد عنده إشارة هنا وهناك لكيفية الخلق وغيره فتوحي بان له مذهبا فلسفيا.

إما زهده فقد كان وفيرا في شعره لحد كبير نستطيع القول انه أكثر أغراض شعره الموجود والمجموع في ديوانه كما نستطيع القول أيضاً انه كان عنصرا مهيمنا على عناوين قصائده، فشعره مليء بعناوين زهديه تركز على الدنيا بصورة خاصة وعلى ما يقع في ضمنها من معان كثيرة كالزمن والعمر والدهر وغيرها.

إما أكثر مضمون زهدي ركّز عليه فهو الموت بصفته باعثا على الزهد في الدنيا وذلك ما كان منتشرا في شعره بشكل كبير جدا، وبامكاننا القول أن الموت هو العنصر الأكثر غلبة في زهده وأراد من خلاله تسخيف حال الدنيا وتصغير قدرها

والاستخفاف بكل ما فيها، لان عامل الزمن سوف ينهيها، وما دامت منتهيـــة فـــلا خيـــر يرجى منها، في نظره، ونخلص أيضاً إلى أن شعر ابي العتاهية الزهدي يتوافر على كثير من المضامين التي لم نستطع الاحاطة بها كلها. عسى أن تكون هذه فاتحة لبحوث أكثـــر رصانة، وما توفيقي الا بالله.

هوامش البحث

(1) مختار القاموس، مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، الطاهر احمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1984: مادة (زهد).

(2) كتاب العين، ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، 1986: باب الهاء والزاي والدال.

(3) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت،ط1،1995: مادة (زهد).

(4) ينظر: النفيس من كنوز القواميس، صفوة المتن اللغوي من تاج العروس ومراجعة، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب: مادة زهد.

(5) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، مجدي وهبه، وكامل المهندس، مكتبة لبنان،1984، 192–193.

(6) ينظر: مقارنة الاديان، احمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط4، 1988، 85/1 و 295/1 و 244/2.

(7) النظرية الخلقية عند ابي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، د. سناء خضر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، 1999: 107.

(8) آل عمران: 185.

(9) الفلسفة العربية، ابو الوفا التفتازاني، معهد الانماء العربي، بيروت، 1986: 258/1–259.

(10) الأغاني، ابو الفرج الاصبهاني، تحقيق لجنة من الأدباء، دار الثقافة، بيروت، 1983: 5/4.

(11) الشعر والشعراء، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الثقافة، بيروت: 675/2.

(12) ينظر: الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1989: 88.

(13) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، مطبعة دار صادر، بيروت، 1955: 26/4.

(14) ينظر: تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، دار الثقافة، بيروت: 304.

[15] للاستزادة ينظر: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، انيس المقدسي، ط18، دار العلم للملايين، بيروت، 1994: 149وما بعدها.

[16] مروج الذهب ومعادن الجوهر، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (364 للهجرة)، تحقيق وتعليق: قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، 1989: 39/4، وينظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط13، دار المعارف، القاهرة، 1966: 238.

[17] تاريخ الأدب العربي: 304.

[18] ينظر أسطورة الزهد عند أبي العتاهية، محمد عبد العزيز الكفراوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1972، 113.

[19] ابو العتاهية، د. هاشم صالح المناع، سلسلة اعلام الفكر العربي، دار الفكر العربي، بيروت،1991: 150.

[20] الأدب العربي في العصر العباسي: 92.

[21] ديوانه: 104.

[22] الأدب العربي في العصر العباسي: 92.

[23] ديوانه: المقدمة بقلم المحقق: 8.

[24] ديوانه: ضمن المقدمة: 9–10 ولكنه لم يذكر الأبيات كاملة بما فيها ما ذكره في المقدمة عندما ذكرها داخل الديوان: 163–164.

[25] تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1996: 238.

[26] ينظر: الأغاني،4 /43–44.

[27] ينظر: أسطورة الزهد عند أبي العتاهية، 101– 103.

[28] ديوانه: المقدمة:11.

[29] ينظر: الشعر والشعراء، 199/2.

[30] ينظر: الأغاني، 63/4–64.

[31] الأدب العربي في العصر العباسي:94، وينظر: أسطورة الزهد عند أبي العتاهية،41-59.

[32] الشعر والشعراء:199/2.

[33] امراء الشعر العربي: 56.

[34] سلم الخاسر، شاعر الخلفاء والأمراء في العصر العباسي، د. نايف محمود معروف دار الفكر اللبناني، بيروت، 188.

[35] ينظر: ديوانه، 373-384.

[36] المصدر السابق: 50-51.

[37] ديوانه: 129.

[38] ديوانه: 105-106.

[39] ديوانه: 106.

[40] المصدر السابق: 107.

[41] ديوانه: 108-110.

[42] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. احمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1986، 338/2.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1989.
3. ابو العتاهية، هاشم صالح المناع، سلسلة اعلام الفكر العربي، دار الفكر العربي، بيروت،1991.
4. الاغاني، ابو الفرج الاصبهاني، تحقيق لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر، دار الثقافة، بيروت، 1983.
5. اسطورة الزهد عند أبي العتاهية، د. محمد عبد العزيز الكفراوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1972.
6. أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، انيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 18،1994.
7. تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، دار الثقافة، بيروت.
8. تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف،دار المعارف، القاهرة، ط13، 1966.
9. ديوان ابي العتاهية، شرح وضبط وتقديم، د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997.
10. سلم الخاسر، شاعر الخلفاء والأمراء في العصر العباسي، د. نايف محمود معروف، دار الفكر اللبناني، بيروت.
11. الشعر والشعراء، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الثقافة، بيروت.
12. الفلسفة العربية، ابو الوفا التفتازاني، معهد الانماء العربي، بيروت، 1986.
13. العين، ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي، دار الشؤون الثقافية ودار ومكتبة الهلال، الدار الوطنية للتوزيع والاعلان، ط2.
14. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، 1995.

15. مختار القاموس مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، الطاهر احمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1984.
16. مروج الذهب ومعادن الجوهر، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق: وتعليق قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، 1989.
17. معجم البلدان، ياقوت الحموي، مطبعة دار صادر، بيروت، 1955.
18. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، 1984.
19. مقارنة الأديان، احمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط4، 1988.
20. النظرية الخلقية عند ابي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، د. سناء خضر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1999.
21. النفيس من كنوز القواميس: صفوة المتن اللغوي من تاج العروس ومراجعه، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب.